

التصوف الإسلامي المصادر. المؤثرات. الأدوار

د. محمد المصطفى ولد البشير

أستاذ جامعي

باحث في التصوف الإسلامي

الجمهورية الإسلامية الموريتانية



ملخص

إن أي ظاهرة اجتماعية لا يتسنى فهمها إلا في ضوء الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية المختلفة التي أهلت لنشوء هذه الظاهرة وتطورها، ومن ثم كان اهتمام العلماء العرب المسلمين والمستشرقين بتحديد العوامل التي كانت وراء نشأة التصوف ولكثرة ما شاب التصوف من عناصر غريبة عن الإسلام، منها الهندي والفارسي واليوناني والمسيحي، فقد أدى ذلك إلى اعتقاد البعض من العرب والمستشرقين أن نشأة التصوف ومصدره يرجع إلى هذه العناصر الدخيلة عن الإسلام وغيرها من العوامل الخارجية بعيدة الصلة عن الإسلام، والحقيقة أن تاريخ التصوف في الإسلام جزء لا يتجزأ من تاريخ الإسلام نفسه، ومظهر من مظاهره وما أحاط به من ظروف وما دخل فيه من شعوب، وليس شيئاً اجتلب من الخارج دون أن يكون له صلة بالدين الإسلامي وروحه وتعاليمه.

كلمات مفتاحية:

الحياة الروحية، مدارس التصوف، حلقات الذكر، الطرق الصوفية،
الصحابة والسلف

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٥ نوفمبر ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ٣ فبراير ٢٠١٥

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد المصطفى ولد البشير. "التصوف الإسلامي: المصادر، المؤثرات، الأدوار". - دورية كان التاريخية. - العدد الثالث والثلاثون،
سبتمبر ٢٠١٦، ص ٨٤ - ٨٩.

مقدمة

انطلاقاً من محاور رئيسة من تعمق فيها سيكتشف الكثير من الخصائص والسمات الصوفية من منظر علمي متجرد، وهذه المحاور هي كالتالي: (تعريفات التصوف الإسلامي - مصادر ومؤثرات التصوف الإسلامي - أهم الطرق في التصوف الإسلامي - الأدوار التي لعبها التصوف الإسلامي).

أولاً: تعريفات التصوف الإسلامي

أثارت تسمية التصوف الإسلامي جدلاً عند مؤرخي التصوف، وتعددت الآراء حول تليل مصطلح التصوف، فقد عرفها أبوبكر محمد بن إسحاق الكلاباني وهومن أقطاب التصوف في كتابه التعرف لمذهب أهل التصوف فقال: إن هناك من نسب الصوفي من صفا قلبه لله. وذهب آخرون إلى أن الصوفية هي من الصفة، وهي مكان ملحق بمسجد رسول الله

كانت بداية التصوف الإسلامي هروباً إلى الله، وزهداً في الدنيا وملذاتها وسعيًا إلى الانزواء والتعبد، وابتعاداً عن الفتن والمجون، لأن التصوف الإسلامي يمثل بحق الحياة الروحية للديانات السماوية، ويجسد التدين الصحيح الذي يحرك الإنسان في دائرة الفعل المسؤول، فلا حقد ولا عدا ولا حسد ولا بغضاء ولا كراهية ولا تطاول على حقوق المخلوقين والعباد^(١)، لكن لماذا اخترت موضوع التصوف الإسلامي: المصادر، المؤثرات، الأدوار؟ وماهي الإشكالية التي يثيرها هذا الموضوع؟ وللإجابة على هذه التساؤلات من ناحية، ونظرًا لأهمية التصوف الإسلامي في حياتنا الروحانية اتجاه خالقنا جل وعلا من ناحية أخرى، سأحاول تسليط الضوء على هذا الموضوع

ثانياً: مصادر ومؤثرات التصوف الإسلامي

تعددت الآراء حول مصادر التصوف والتأثيرات التي لحقت به سواء كانت داخلية أو خارجية، وعلى الرغم من تعددها فإنه يمكن حصرها في اتجاهين رئيسيين هما:

أ- يرى بعضهم أن لا صلة للإسلام بالتصوف، معتبراً أنه نتاج تأثيرات دينية وعرقية لأقوام وحضارات دخلت إلى الإسلام وتأثر بها بعض الناس، وأنتج مزيجاً من التصورات والنظريات المتداولة.

ب- يرى آخرون أن التصوف إسلامي النشأة والجذور، نشأ من ذلك الزهد الذي عرف به محمد (ﷺ) والكثير من صحابته وأتباعه بفعل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي حملت معاني الزهد في الدنيا والآخرة.

وقد ساهمت الفتوحات الإسلامية في نشأة مدارس التصوف الإسلامي على أيدي أولئك المؤمنين الذين أرادوا أن يميزوا أنفسهم عن إخوانهم الذين مالوا إلى حياة الترف والنعيم، وفي ذلك يقول إبراهيم مذكور (التصوف ظاهرة إسلامية نبتت في جو الإسلام وبيئته، وتأثرت أساساً بفعل النبي (ﷺ) وأصحابه، واعتمد على ما جاء في الكتاب والسنة من حكمة وموعظة، وشاركت المدارس الإسلامية الكبرى في بعض ما عرضت من مشاكل، ولكنها كالظواهر الإسلامية الأخرى لم تسلم مما سرى إلى العالم العربي من عوامل خارجية وكان لا بد لها أن تتأثر وتأخذ عندها)^(٥). فمما لا شك فيه؛ أن هناك مؤثرات داخلية دخلت في التصوف الإسلامي وفعلت فعلها، وتأثرت بها بعض طرق التصوف الإسلامي حتى حادت عن حقيقتها، ورافقتها الكثير من البدع، والانحرافات والخزعبلات التي لا أساس لها في العقيدة الإسلامية أوفي السنة النبوية المطهرة، ومنها من التزم بأصول العقيدة وسنة النبي (ﷺ) وسيرة السلف الصالح فباتت في ممارساتها طاهرة نقية تزكو بها النفس، وتطمئن إليها القلوب، ولذلك كان قول المفكر الإسلامي الكبير عمر فروخ بهذا الشأن (الصوفية حركة بدأت زهداً وورعاً ثم تطورت فأصبحت نظاماً شديداً في العبادة، ثم استقرت اتجاهاً نفسياً وعقلياً بعيداً عن مجراها الأول، وعن الإسلام في كثير من أوجهها المتطرفة)^(٦). والمؤثرات الداخلية على التصوف الإسلامي وطرقه داخلية وخارجية:

أما الداخلية، فهي العوامل الإسلامية التي ترسخت في نفوس الناس من خلال الإيمان المطلق بالله تعالى حيث تجلى ذلك في القرآن الكريم، وفي سيرة النبي (ﷺ) والأحاديث النبوية الشريفة، وفي نشأة علم الكلام ومن أنتجه من جدل في مسائل الصفات والاختيار، ونظريات الحلول والاتحاد وغيرها مما أربك جمهور المسلمين وأشغل خواصهم.

(ﷺ) في المدينة المنورة، ارتاده جماعة من المسلمين الفقراء الذين أخرجوا من ديارهم، وكانوا نحو أربعمائة رجل لم تكن لهم مساكن أو عائلات أذن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقيموا في فناء مسجده وانقطعوا للعبادة والجهاد في سبيل الله، وتعلم القرآن، وكان رسول الله يواسيهم ويجلس ويأكل معهم، وغالباً ما كانوا لا يلبسون إلا ثوباً واحداً من الصوف لا يملكون غيره، ومن أهل الصفة: بلال بن رباح، سلمان الفارسي، أبو ذر الغفاري، أبو موسى الأشعري وغيرهم رضوان الله عليهم. وقيل إن تحليل تسمية أهل التصوف بالصوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله تعالى، لإقبالهم على الله تعالى وتجريدها عما سواه.

وعرف ابن خلدون التصوف بأنه: العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف، فلما نشأ الإقبال على الدنيا في القرن الثاني للهجرة وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبولون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة^(٧). وعرف ابن تيمية المتصوفة بالقول: (الصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هومن أهل اليمين. وفي كل من الصنفين مَنْ قد يجتهد فيخطئ، وفيهم مَنْ يذنب فيتوب أولاً يتوب، ومن المنتسبين مَنْ هو ظالم لنفسه عاص لربه)^(٨).

والحقيقة أن مصطلح التصوف الإسلامي لم يعرف في الإسلام إلا في أوائل القرن الثاني للهجرة عندما زاد الاتصال بين المسلمين والشعوب والحضارات الأخرى المختلفة بسبب سرعة انتشار الإسلام، وقد أعرض الكثير من علماء الصوفية عن التعريف بالتصوف، لأنهم يعتبرونه علماً لدنيا لا كسبي على نحو ما قال فريد الدين العطار: (إذا تجاوز القرآن والأحاديث فليس ثم كلام يعلو على كلام مشايخ الطرق رحمة الله عليهم، فكلامهم ثمرة للعمل والحال، وليس نتيجة للحفظ والقال، وإنه من العيان لا من البيان، ومن الأسرار لا من التكرار، ومن العلم اللدني، لا من العلم الكسبي، ومن الثورة والهيام، لا من العمل والإقدام، ومن عالم أدبني ربي لا من عالم ربي. فإنهم ورثة الأنبياء، ثم إن السبب لعدم شرحنا للأقوال، هو أن الأولياء مختلفون، فبعضهم من أهل المعرفة، وبعضهم من أهل المعاملة، وبعضهم من أهل المحبة، وبعضهم من أهل التوحيد، وبعضهم جامع لكل ذلك، وبعضهم متصف بصفة، وبعضهم لا يتصف بصفة)^(٩). ولذلك فإن سلوك طريق التصوف الإسلامي ليس بالأمر السهل، لأنه علم وعمل، وصقلا لحياة الفرد بالطاعات والعبادات ليكون مؤهلاً للسير في هذا الاتجاه الذي لا يسلكه إلا مَنْ حسنت سيرته، وصفت سرائره، وتوجه إلى الله بقلبه وجوارحه متجاوزاً كل الصعاب، ووسوسات الأنا.

ذات الدلالة على الصوفية والمتصوفة، تلتقي مع مدلول الخميرة الأزلية أو حكمة الإشراق، المعروفة عند حكماء الفرس، لاسيما وأن فارس لعبت دورًا سياسيًا واجتماعيًا كبيرًا في العالم القديم، ولدى دخول أهلها الإسلام بعد هزيمتهم في القادسية، دخلوا في الدين الجديد مع تراثهم وحضارتهم وثقافتهم العريقة.

المؤثرات المسيحية: لقد عرفت المسيحية ورهبتها في الجزيرة العربية والبلدان المجاورة لها قبل انتشار الإسلام، وكان العرب مع جاهليتهم ينظرون إلى الرهبان بكثير من الاحترام والإجلال، فلما بزغ فجر الإسلام في جزيرة العرب وانتشر أتباعه لم يجدوا من المسيحية وأتباعها، بداية، إلا التفهم والتلاقي في الوقوف أمام مؤامرات اليهود وخذاعهم وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بالقول: "لتجدن أشد الناس عدوة للذين ءامنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين ءامنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون"^(١١).

ونظام الرهبة في المسيحية يقوم على البعد عن ترف الحياة ومباهجها، وترك المجتمع، والانزواء في الأديرة البعيدة والرضا بالقليل من الملبس والمأكل، وقد تأثر المتصوفة المسلمون بهذا المنحى، فعن عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي (ﷺ) قال: (اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها من الفقراء).^(١٢) ويمكن القول؛ بأن حركة التصوف الإسلامي بدأت في الانحسار مع بداية القرن الحادي عشر للهجرة، حيث بدأت مرحلة جديدة من الطرق والزوايا تأخذ أبعادا مختلفة عما سبقها اختلطت فيها الحقيقة مع الفوضى، والادعاء مع الارتقاء فتشوهت بعض حركات التصوف الإسلامي في الوطن العربي والعالم الإسلامي وصارت تواكلا وخنوعًا بعد أن كانت جهادًا وزهدًا، أصبحت تخلفًا وأمية .

ثالثًا: أهم الطرق في التصوف الإسلامي

إن الصوفي أو التصوف من المصطلحات المستحدثة عن المسلمين، وقد أطلقت مع بداية القرن الثاني للهجرة لقبًا على العالم الكيمائي جابر بن حيان الكوفي، وعلى أبي هاشم الزاهد البغدادي لاتصافهما بالزهد والتقشف في حياتهما، غير أن الصوفيين على وجه العموم يعودون بطرقهم وتنظيمها إلى حياة النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته، وعلى وجه الخصوص لسيرة وسلوك الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومن هنا كان قول أبي بكر الواسطي (أول لسان الصوفية ظهرت في هذه الأمة على لسان أبي بكر رضي الله عنه إشارة، فاستخرج منها أهل الفهم لطائف توسوس فيها العقلاء).^(١٣) وعلى الأرجح إن أول من تكلم عن طرق التصوف ومريديها علي بن عثمان الهجويري في كتابه (كشف المحجوب) فقال: (الصوفية اثنتا عشرة فرقة، اثنتان منها مردودتان وعشر

أما المؤثرات الخارجية فهي متعددة ومتنوعة منها:

المؤثرات الهندية: تعرف المسلمون على بلاد الهند مع بداية القرن الثاني للهجرة، واعتنق الكثير من أهل البلاد الإسلام، وقامت بينهم صلات تجارية واقتصادية، وترجمت كتبهم وآثارهم. وتأثر التصوف الإسلامي بحياة التقشف والزهد، ومجاهدة، النفس التي مارسها الهنود في طقوسهم وخاصة احتقارهم للذات الجسدية، وممارستهم لرياضة (اليوغا) التي تركز على قهر الجسد وتعذيبه، ويصفهم الجاحظ بالقول: (إن هؤلاء سياح والسياسة بالنسبة لهم في حكم التوقف واعتزال النساطرة في الصوامع والأديرة، وتلك الجماعة يسافرون دائمًا اثنين اثنين ويسبحون بحيث إذا رأى الإنسان واحدًا منهم يتيقن أن الثاني ليس ببعيد عنه إلى حد ما، وسيظهر قريبًا، ومن عاداتهم أنهم لا ينامون ليلتين في مكان واحد، ولهؤلاء السياح خصال أربع: (القدس والطهارة والصدق والمسكنة).^(١٤)

وهناك العديد من عناصر التلاقي بين التصوف عند المسلمين وبين التصوف الهندي حيث يلتقيان في النزعة الروحية وارتداء الملابس الخشنة والنزعة نحو غذاء الروح والتخفيف من غذاء البدن كما وصف أبو الفتح الشهرستاني فرقة من الهنود بالقول: (فاكتفوا بالقليل من الغذاء على قدر ما تثبت به أبدانهم، ومنهم من كان لا يرى ذلك القليل أيضًا ليكون لحاقه بالعالم الأعلى قدر ما تثبت به أبدانهم، ومنهم من كان لا يرى ذلك القليل أيضًا ليكون لحاقه بالعالم الأعلى أسرع).^(١٥) ومن هنا يظهر أثر التصوف الهندي في التصوف الإسلامي في بعض وجوه وممارساته، فالمذهب البوندي بدأ مع بوذا والتصوف المنظم بدأ مع إبراهيم بن أدهم. كان بوذا أميرًا محاطًا بعطف أبيه الملك، وكان إبراهيم مستعدًا لارتقاء سدة الملك. انصرف بوذا إلى حياة الترف واللهو والمجون بين رقص الجوارح وعزف الموسيقى ثم تحول إلى حياة الزهد والتقشف، كما انصرف إبراهيم إلى التمتع بلذات الشباب ليتحول إلى التصوف فيما بعد. كلاهما أمير ثري جميل، وكلاهما يتذمران من اللذة التي ترافق الفتى والفتوة والجمال، وكلاهما يتوقان إلى مثل عليا.^(١٦)

المؤثرات الفارسية: التأثير الإشراقي أو المشرقي، نسبة إلى

الشرق، وهو ظهور الأنوار العقلية ولمعانها وفيضانها بالإشراقات على الأنفس عند تجردها، وتحدث بشأنها عبد القاهر السهروري بالقول: (وكان في الفرس أمة يهدون بالحق وبه كانوا يعدلون، حكماء فضلاء غير مشبهة المجوس، قد احبينا حكمتهم النورية الشريفة التي يشهد بها ذوق أفلاطون ومن قبله في الكتاب المسمى حكمة الإشراف^(١٧)، ويطلق الفرس عليها لفظ الخميرة الأزلية). ولما نشأت العلاقة بين العرب والفرس على أثر دخول الإسلام إلى بلاد فارس توطدت الصلة بينهما وحمل الفرس معهم إلى الدين الإسلامي الجديد من بعض عاداتهم وطقوسهم. فالإشراق والكشف والتجرد، وغيرها من التعابير

لا تتناسب مع أحكام الشرع الحنيف، بل وتشوه حقيقة الزهد والتشفق وتتنافى مع حقيقة الإسلام، وقد وصف شيخ الإسلام، ابن تيمية الملتزمين بالقول (إن أولياء الله المتقون هم الذين فعلوا المأمور وتركوا المحذور، وصبروا على المقدور، فأحبهم الله وأحبه، ورضي الله عنهم ورضوا عنه، وأعداؤه أولياء الشيطان وإن كانوا تحت قدرته فهو يبغضهم).^(١٥)

رابعاً: الأدوار التي لعبها التصوف الإسلامي

إذا كان أهل الصفة، وهم أصحاب الفناء الملحق بمسجد رسول الله (ﷺ)، هم رواد التصوف الإسلامي، فإن المتصوفة بهذا المعنى ارتبطوا ارتباطاً وثيقاً بنشر الدعوة والجهاد والرباط في سبيل الله ومنهم كبار الصحابة والتابعين، الذين زهدوا في الدنيا وسلكوا طريق محمد (ﷺ)، وأما من نسب المتصوفة إلى من تخاذل وتقاوس وهجر الأوطان وتخلّى عن العيال فهو بخلاف الحقيقة. قال عليه الصلاة والسلام: "والذي نفس محمد بيده لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، ولمقام أحدكم في الصف الأول خير من الدنيا وما فيها، ولمقام أحدكم في الصف الأول خير من صلاته ستين سنة"^(١٦)، وقال عليه الصلاة والسلام: "عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله"^(١٧). وقد وصف أصحاب محمد (ﷺ) بأنهم فرسان في النهار ورهبان في الليل، انطلاقاً من قوله تعالى: "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَنْطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ"^(١٨).

وقد لعبت الطرق الصوفية دوراً في نشر الإسلام في آسيا وأفريقيا وفي بعض البلدان الأوروبية من خلال طلابها وشيوخها الذين هاجروا في سبيل الدعوة إلى الله، وانتشار الدعوة الإسلامية في السنغال ومالي والنيجر وغينيا وغانا ونيجيريا والتشاد، إنما يرجع الشطر الأكبر في الفضل فيه إلى الطرق الصوفية، فكانت الزوايا والرباطات التي أسسها شيوخ هذه الطرق الصوفية أماكن لنشر الدعوة الإسلامية بين الشعوب الوثنية في غربي القارة الأفريقية وقلبها، ومرد هذا خصوصاً إلى اختلاط الصوفية بالطبقات الشعبية في هذه البلاد، وعيشهم بين العامة والفقراء)^(١٩).

ولذا كان إقبال الأفارقة على الدخول في الإسلام دون تردد نتيجة لجهود هذه الطرق الصوفية التي انتشرت في القارة وأسس لمريديها زوايا ومراكز لنشر تعاليم الإسلام وتعلم القرآن، وتعتبر الطريقة القادرية والتيجانية من أهم وأنشط الطرق التي عملت على نشر الإسلام ودعوته من خلال مراكزها في المغرب وموريتانيا والنيجر والسنغال وغينيا والسودان الغربي، كما تميزت طرق التصوف الإسلامي الحقيقية بدورها البارز في الدفاع عن المغرب العربي والشمال الأفريقي والمساهمة في صنع

مقبولة، ولكل صنف منها معاملة طيبة، وطريق محمودة في المجاهدات، وأدب لطيف في المشاهدات)^(١٤)، ويمكن إجمال طرق التصوف الإسلامي الأساسية قديماً وحديثاً بالآتي:

- ١- الطريقة القادرية: نسبة لإمامها عبد القادر الجيلاني الحسني.
- ٢- الطريقة المحاسبية: ينتمي مريدو هذه الطريقة إلى العارف بالله الحارث بن أسد المحاسبي.
- ٣- الطريقة الجنيدية: نسبة إلى أكبر أقطاب التصوف أبي القاسم الجنيد.
- ٤- الطريقة النورية: ينتمي مريدها إلى أبي الحسين النوري وهومن علماء التصوف الإسلامي.
- ٥- الطريقة القصارية: وتنتمي إلى حمدون بن أحمد القصار.
- ٦- الطريقة الطيفورية: وهي نسبة إلى طيفور بن عيسى البسطامي من كبار رجال التصوف الإسلامي في القرن الثالث للهجرة.
- ٧- الطريقة الخزازية: وهم المنتمون إلى أبي سعيد الخزاز.
- ٨- الطريقة السهلية: نسبة إلى سهل بن عبد الله التستري.
- ٩- الطريقة الحكيمية: نسبة إلى محمد بن علي الحكيم الترمذي، وهومن كبار أئمة التصوف في زمانه.
- ١٠- الطريقة السيارية: نسبة إلى أبي العباس السيار، إمام بلاد مرو.
- ١١- الطريقة الخفيفة: نسبة إلى كبير أقطابها محمد بن خفيف.
- ١٢- الطريقة الشاذلية: نسبة لمؤسسها علي بن عبد الله الجبار الشاذلي.
- ١٣- الطريقة البكتاشية: ومؤسسها بكتاش الصوفي، وهومن أقطاب التصوف في عصره.
- ١٤- الطريقة الشاذلية: نسبة لأحمد بن مخلوف الشاذلي.
- ١٥- الطريقة العيساوية: نسبة لمؤسسها محمد بن عيسى.
- ١٦- الطريقة التيجانية: مؤسسها أحمد بن محمد الشريف الحسني التيجاني.
- ١٧- الطريقة السنوسية: نسبة لمؤسسها محمد بن علي السنوسي.
- ١٨- الطريقة العلوية: نسبة لشيخها أحمد بن مصطفى العلوي.

وحركة التصوف الإسلامي إجمالاً في الوطن العربي والعالم الإسلامي تنتمي بشكل ما من الأشكال إلى هذه الطرق أو إحدى فروعها، لاسيما وأننا بتنا نشهد مجموعات متعددة من المتصوفة وبأسماء مستحدثة منها الملتزم بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وسيرة السلف الصالح، ومنها من ادعى التصوف وهو يحمل عقائد فاسدة ويمارس شطحات من الأفعال والأقوال

خاتمة

إن أهم الاستنتاجات على شكل خاتمة من خلال هذا الموضوع هي على النحو التالي:

- إن المتصوفة الحقيقيون هم من تمسك بكتاب الله وسنة نبيه (ﷺ) وسيرة أصحابه، وابتعدوا عن كل الشطحات والشبهات في العقيدة والسلوك، ولذا فإننا مدعون للعودة إلى الأصول لتمييز بين صوفية عاملة، وصوفية داعية وصوفية مجاهدة، فالصوفية الفكرية هم الجماعة الذين اكتفوا بالزهد في الدنيا وابتكار الآراء الصوفية التي تقرب من الفكر الفلسفي، أمثال القشيري، ابن عربي، وابن سبعين.
- الصوفية العاملة وهو اتجاه ابتكره أحمد الرفاعي العراقي صاحب الطريقة الرفاعية، إذ يرى أن الزهد مع الانزواء عن الناس والتفرغ للعبادة لا يجدي، فالزهد هنا لا ينفع أحدًا ولا نفسه، من هنا كان الرفاعي جوالاً في خدمة المسلمين، وخاصة الأيتام والأرامل والضعفاء، حيث إن خدمة المحتاجين برأيه عبادة وقربى من الله.
- الصوفية الداعية وهي صوفية أبي مدين شعيب عميد صوفية المغرب الذي عاش ومات في الجزائر، ومن تلاميذه الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية، الذي قضى حياته يطوف في عالم الإسلام يدعو الناس، وكان أول من دعا إلى إنشاء الزوايا في الجهات النائية للدعوة الإسلامية وإلى الإسلام ومعاونة المسلمين.
- الصوفية المجاهدة المحاربة التي تعتبر الجهاد في سبيل الله أرقى أعمال العبادة وأسمها كصوفية المغرب العربي^(٢٥)، وهناك فرق كبير بين التصوف الذي يعني الزهد والالتزام بالإسلام نهجاً وسلوكاً وبين أولئك الذين أعطاهم بعض الجهلة صفات من التعظيم، وطلبوا منهم أموراً كلها لا يجوز أن تكون لغير الله تعالى ومنه، فكأنها شبه وثنية تركت بصماتها على سلوك نشره الجهلة الذين يمشون مكبين على وجوههم، ولا يبحثون عن الصراط المستقيم.^(٢٦)

حضارته، وقد اشتهرت دولتا المرابطين والموحدين في هذا المضمار وأول رباط أقامه العرب بأفريقيا أسسه الوالي هرثمة بن أعين على غرار حصن الرشيد العباسي في ثغور البلاد الإسلامية في الشرق^(٢٧). وقد شكل المتصوفة طليعة هؤلاء فكانت الرباطات عامرة بالمرابطين والعلماء والصلحاء والمتصوفة^(٢٨)، وقد حمل التاريخ الإسلامي مواقف جهادية متعددة للعديد من الطرق الصوفية وأقطابها في التصدي للخطر الذي يهدد البلاد والعباد كقول المتصوف المجاهد عبد الله محمد بن يحيى البهلوي "إن الذي لم يتقلد سيفاً في سبيل الله قط، ولم يضرب به، ولا عرف الحرب كما كان نبينا محمد (ﷺ)، ولم يتعبد بالسيرة النبوية فكيف يُعدّ إماماً"^(٢٩).

وكانت الصوفية وطرقها في طليعة المجاهدين ضد البرتغاليين والأسبان، وثورة المجاهد عمر المختار ومريديه ضد الاستعمار الإيطالي في ليبيا شاهد على دور الزوايا وأتباع الرباطات في محاربة أعداء الإسلام والمسلمين، كما لعبت الصوفية دوراً إيجابياً وبارزاً في المحافظة على اللغة العربية والعقيدة الإسلامية في بلاد المغرب العربي من خلال زواياها المنتشرة في المناطق البعيدة، بعدما حاول الاستعمار الأوروبي أن يسلب هذه البلاد عن عقيدتها ومحيطها وثقافتها عن طريق الإرساليات والمراكز الثقافية التي أقامها بهدف إلحاق البلاد الإسلامية بالمغرب دينياً وسياسياً وثقافياً. ولعبت الصوفية الحقة دورها في بلاد المشرق العربي حيث كانت مدينة عبدان في بلاد عربستان شرق العراق أول رباط تجمع فيه متطوعة البصرة للدفاع عن هذا الثغر الإسلامي، وفيه رباط عدد كبير من مشايخ الصوفية مثل مقاتل بن سليمان وحماد بن سلمة وبشر الحافي^(٣٠) وغيرهم.

هذه هي الصوفية الحقيقية؛ فهي مجاهدة ترى في الجهاد أعظم أعمال العبادة، وترى تعلم وتعليم القرآن الكريم والتمسك بالسنة النبوية المطهرة ونشرها بين الناس، من أجل الأعمال وأعظمها قربى لمرضاة الله تعالى، وهذا حكماً لا ينطبق على مدعي الصوفية وطرقها الذين يشيعون التخازل والتواكل بين الناس، والاستسلام والخنوع للأعداء بحجة عدم التكافؤ معهم عدداً وعدة فباتوا في سلوكهم أداة طيعة لكل حاكم ولوا كان فاسداً، وأداة مضمونة لكل محتل بسبب جهلهم بالإسلام ودوره في العدالة والحرية، والذين أشار إليهم عبد الحميد بن باديس ومحمد عبده وجمال الدين الأفغاني في معاركهم الإصلاحية، ويقول عمر فروخ في هؤلاء: رب مفوض سام لم يكن يرضى أن يستقبل ذوي القيمة الحقيقية من وجوه البلاد، رغم مجيئهم من أقاصي البلاد بحجة ضيق الوقت، وتراه يسعى إلى زيارة حلقة من حلقات الذكر، ويقضي هنالك زيارة سياسية تستغرق الساعات^(٣١)، ومن أجل ذلك ليس كل من ادعى الصوفية متصوفاً، ولوا كثر أتباعه من العامة.

الهوامش:

- (١) صابر طعيمة، دراسات في الفرق . ط ٢ ، مكتبة المعارف، - الرياض ١٩٨٣، ص ١٠٤ .
- (٢) ابن خلدون- المقدمة- بيروت، دار الفكر، ١٩٨١، ص ٤٦٧ .
- (٣) ابن تيمية: كتاب التصوف، ص ١٨ (مجموعة الفتاوى ١١٣) مكتبة المعارف، القاهرة ١٩٨٠ .
- (٤) قاسم غني: تاريخ التصوف الإسلامي- ص ٢٧٠ - ترجمة صادق نشأت - القاهرة / ١٩٧٠ .
- (٥) د. إبراهيم مذكور: في الفلسفة الإسلامية، ج ٢، ص ١٣٤، دار المعارف / مصر .
- (٦) عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي، دار العلم للملايين، ١٩٩٩، ص ٤٧٠ .
- (٧) الجاحظ- كتاب الحيوان ج ٤، ص ١٤٦ . المكتبة الأزهرية، القاهرة، ١٩٩٢ .
- (٨) أبو الفتح محمد الشهرستاني: الملل والنحل - ج ٢، ص ٢٦٣ - بيروت - دار المعرفة ١٩٨٥ .
- (٩) جبور عبد النور: التصرف عند العرب، ص ٦١ بيروت ١٩٣٨ .
- (١٠) كلمات الصوفية بين ابن سينا والسهورودي، مجلة الخطوات العربية، مجلد ١/١٢٨ - ص ١٧٦ - الكويت ١٩٨٤ .
- (١١) سورة المائدة، الآية: ٦٢ .
- (١٢) رواه البخاري .
- (١٣) أبو نصر الطوسي: اللمع في التصوف. ص ١٦٨ - ليدن (هولندا) عام ١٩١٤ .
- (١٤) علي الهجويري: كشف المحجوب، ص ٤٠٣ ترجمة إسعاد قنديل - بيروت ١٩٨٠ .
- (١٥) أحمد بن تيمية: الفرقان، ص ١٢٦ - دار العلم للجميع - القاهرة ١٩٨٠ .
- (١٦) رواه أحمد بن حنبل في مسنده .
- (١٧) رواه أحمد بن حنبل في مسنده .
- (١٨) سورة الأنفال، الآية: ٦٠ .
- (١٩) عبد الرحمن بدوي: تاريخ التصوف الإسلامي ص ٢٥؛ وكالة المطبوعات - الكويت ١٩٧٥ .
- (٢٠) محمد البهلي النيبال: الحقيقية التاريخية للتصوف الإسلامي - ص ١٦٣ - تونس - مكتبة النجاح ١٩٧٢ .
- (٢١) مصدر السابق، ص ١٥٩ .
- (٢٢) حسين مؤنس: تاريخ المغرب، ج ٢، ص ١٠٠ - بيروت ١٩٨١ .
- (٢٣) عبد الرحمن البدوي: تاريخ التصوف الإسلامي، ص ١٢٦؛ وكالة المطبوعات - الكويت ١٩٩٥ .
- (٢٤) عمر فروخ: التصوف في الإسلام، ص ١١ - بيروت ١٩٨١ .
- (٢٥) حسين مؤنس: تاريخ المغرب- مجلد ٢- ج ٣ / ص ٤٤١ - ٤٤٢ - بيروت ١٩٩٢ .
- (٢٦) أسعد السحراني: التصوف: دار النفائس - بيروت ١٩٩١ - ص ١٦٨ .